

الإربعاء 01-12-2010

1188-الوعي (كلية البرنامج الحيوى البقائى)

الفصل الأول

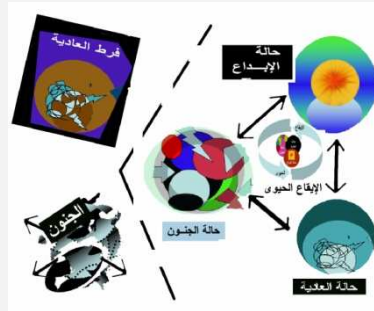
الصحة النفسية (9)

الوعي (كلية البرنامج الحيوى البقائى)
 ما بين "فرط العادية" و"شطج الجنون"
 مروراً بالإيقاع الحيوى بين حالات الوجود
 تمهيد

انتهينا أمس إلى إضافة مصطلحين هامين الأول يمنع الخلط بين الجنون السلبي وبين حالة الجنون إيقاعاً، والثاني يؤكد أن إيقاف فاعلية الإيقاع الحيوى بالمغلاة في الدفاعات يؤدي إلى اغتراب يصل إلى درجة المرض الذى سمي باسم "فرط العادية" ومن ثم إلى العصاب وأضطراب الشخصية.

وكنت أنوى أن أبدأ في تصحيح جدول المقارنة الذى جاء في الأطروحة باكرأ 1986 بعد إضافة هذين المصطلحين المستحدثين، إلا أننى فوجئت أن الجداول كلها، وأيضاً الشرح الذى تحتها تحتاج إلى تعديلات جذرية نتيجة هذه الإضافة.

وقد بدأت بإعادة تخطيط الرسم الرمزى الذى نشر أمس، لأقصر الإيقاع الحيوى على التناسق الطبيعى والذى يشمل "حالة الجنون" دون "الجنون"، وأيضاً لأستبعد "فرط العادية" بعيداً عن الإيقاعية الصحية بشكل أو بآخر.



ثم إنى فوجئت بأن أول بند فى المقارنة فى الأطروحة الأولى كان المقارنه بين حالة "الوعى"، فى كل، مع العلم أن ظاهرة الوعى: (طبيعته وتاريخه وتعدد مستوياته، وحضوره وغيابه... الخ) مازالت تمثل تحديا علميا لم يتم حله بعد.

هذا التحدى شغل علماء فسيولوجيا الأعصاب، وعلم الأمراض العصبية وعلم المعرفة العصى، والفلسفة، ومختصى العلوم النفسية جميعا وبالذات التحليل النفسى، وللأسف شغل أطباء النفس بدرجة أقل مما ينبغى، وقد وجدت أن أقرب تمهيد لعرض هذه المقارنات هو التعرف على ما نعى بهذا المصطلح "الوعى" أولا.

هذا الموضوع هو شغلى الشاغل كما كان ومازال شغل "دانيال دينيت" فى أكثر من عمل وخاصة فى كتابه الصغير "أنواع العقول"، Kinds of Minds (وهو الكتاب الذى أشرنا إليه نشرة سابقة 2007-12-25 "أنواع العقول وتعدد مستويات الوعى")، (نشرة 2008-1-2 "أنواع العقول (والغاء عقول الآخرين)).

الكتاب له عنوان فرعى كالتالى:

Towards an understanding of consciousness

ان محاولة فهم الوعى، كما فعل دينيت، هى المدخل الضرورى الذى يمكن أن يساعدنا على فهم دورات الإيقاع الحيوى بين حالات الوجود بدءاً بالتمييز بين حركية وتعدد حضور مستويات الوعى فى كل حالة منها.

وقد استعمل دينيت قاصداً كلمة "عقل" فى حين أننى قرأت الكتاب كله باعتبار أنه يتحدث عن "البرنامج البقائى الحيوى الذكى الهادف الذى حافظ على بقاء الأنواع" عبر تاريخ تطور الحياة حتى الانسان،

وهو ما يقابل "مستوى الوعى البقائى" عندى ولكن بدءاً من هنا: سوف استعير كثيراً استعمال دينيت لكلمة عقل بهذا المعنى.

الافتراضات الأساسية:

أولاً: أن لنا- نحن البشر- أكثر من عقل فى آن.

ثانياً: (مرة أخرى) أن كلمه عقل (فى هذا الصدد) تكاد تكون مرادفة لكلمه وعى

ثالثاً: إذن فنحن لنا أكثر من وعى

رابعاً: أن هذه العقول، (ومستويات الوعى) تعمل معاً، بالتبادل الإيقاعى، وبالجدل المتناوب طول الوقت.

خامساً: إن الصحة النفسية هى: كفاءة هذا الإيقاع الحيوى لتنظيم حركية هذه العقول (مستويات الوعى) للحفاظ على البقاء، وللتكيف مع المحيط، ومواصلة التطور.

سادساً: إن المرض النفسى ينشأ حين تضطرب هذه العملية إما بالإنكار والاعتراب (فرط العادية) وإما بالتجاوز والشطح (الجنون).

العقل والوعي

العقول التي تكلم عنها الكتاب، ترجع إلى ما قبل الإنسان برده طويل، قبل ظهور ما يسمى المخ، ومن هنا سمحت لنفسى أن أراذف بين ما هو "وعى" وما هو "عقل".

ما الذى يميز الوعى البشرى؟

نبدأ - كما فعل دينيت - بالدعوة إلى التساؤل عن ما قبل العقل البشرى، فهو يتساءل ويوجه السؤال إلينا فى نفس الوقت كما يلي:

• "ما الذى تفكر فيه النملة"

• "لماذا لا تحس النسور بالغثيان من الجثث التى تأكلها متعفنة؟ (أو لعلها تحس؟!)"

• هل يمكن للعناكب أن تفكر؟ أو أنها مجرد روبروتات صغيرة الحجم، ويظل يتساءل المؤلف هكذا حتى يصل إلى طرح السؤال الشامل الذى يقول:

- هل يمكن أن تكون كل الحيوانات والنباتات - حتى البكتريا- لها عقول؟

ثم نقلنا بجرأة أعنف إلى سؤال فرعى يقول:

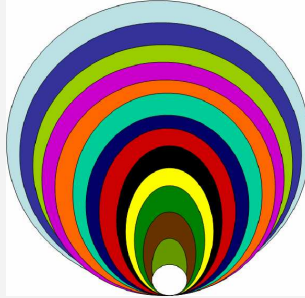
- هل نحن جدّ واثقين من أن كل أفراد البشر لهم عقول ؟

هو يطرح عدة أفكار تنبه إلى احتمال الخطأ (الذى يصل إلى درجة أن يكون موقفاً لأخلاقياً) إذا نحن حكمنا على غيرنا من حيث أنه "يعقل" أو "لايعقل" مجرد أنه يختلف عنا، أو عن ما نتصوره عن عقولنا.

ثم هو يؤكد ضرورة الانتباه إلى أن "الوجود شئ"، (الأنطولوجيا) وما يمكن أن نعرفه عن هذا الوجود شئ آخر (الإبستمولوجيا)

تعدد مستويات الوعى (تعدد العقول)

ما يهمنى فى كل هذا هو أن تعرف كيف نتعامل مع ظاهرتى الصحة والمرض ونحن نضع فى الاعتبار تعدد مستويات الوعى وحركيتها (تعدد العقول ونشاطها الإيقاعى خاصة).



شكل يبين - رمزيا - تعدد مستويات الوعي (حالات الوعي- تعدد العقول - تعدد برامج البقاء) في ترتيب هيراركي غير ملزم ، خاصة في كل من "حالة الجنون" و"حالة الإبداع"

توضيح مبدئي:

في حدود ما يهنا الآن ينبغي أن أقدم ابتداءً بعض الملاحظات التي تخص استعمالاً لكلمة "الوعي" كما سوف نأتى هذا السياق للمقارنة

• الوعي ليس الحالة التي هي ضد " اللاوعي" (الاشعور)، هذا المفهوم الشائع قد اختصر ما يسمى الوعي إلى حالة الصحو واليقظة والشعور الظاهر، في حين أن اللاوعي هو عكس ذلك، مع أن التفكير من منطلق تطوري، وحسب الشرح السابق يؤكد أن اللاوعي هو وعى ووعى ومستويات وعى كثيرة، هي تعدد العقول التي قال بها دينيت، فالإنسان ما زال يحتوى كل البرامج الباقية التي حفظت الأنواع قبله.

• الوعي هو برنامج حيوى بقائى قادر أساسى على تادية وظائف ضرورية لكائن بذاته في مرحلة تطور بذاته،

• مع مفهوم تعدد الذوات نفترض أن لكل "حالة ذات" (إريك بيرن) وعى خاص بها، يظهر معها ويوجهها ويصفها ويميزها، وبالتالي يكون الوعي بلغة إريك بيرن أقرب إلى ما يسمى "حالة الذات" Ego State وبالتالي يوجد أكثر من وعى يتبادل مع بعضه البعض حسب الموقف والهدف والمجال

• بلغة العلم المعرفى العصبى Cognitive Neuroscience الوعي هو أقرب إلى ما يسمى Mental state وهو هو - في تقديري ما يقابل حالة الذات، إلا أن المقصود بـ "حالة العقل" أشمل من المقصود من حالات الذات عند إريك بيرن، إذ قد تشمل أيضاً ما أسماه بيرن "وحدات الذات" Ego units طولاً، وحالاً.

• من كل ذلك ينبغي أن نستقبل الحديث هنا عن الوعي بما يمثله من حضور كلى، متعدد متبادل، جاهز للتشكل والشكيل، وفي نفس الوقت فكل عقل لوعى، هو متسق مع محتواه الخاص وتختلف علاقته مع المستويات (العقول) الأخرى حسب حالة الصحة والمرض، السكون والبسط، التحريك وإعادة التشكيل.

وبدءاً من الأسبوع القادم سنتناول المصطلحات الخمس واحدة واحدة دون جدولة لإمكان تقديم مفهوم متكامل متميز لكل مصطلح.

- (يلاحظ استعمال حرف an بما يعنى أنها مجرد إحدى محاولات الفهم، وهو تواضع علمى يناسب هذه المؤلف الرائع).

- إن من أهم الأسباب التي جعلتني أحب هذا الكتاب وكاتبه هو دفاعه الموضوعي عن نظرية النشوء والارتقاء وأصل الأنواع لداروين (ووالاس)، جنبا إلى جنب مع شجاعته وهو يقتحم تلك هذه المنطقة المشككة الخاصة بالوعي، معظم أعمال المؤلف التي شدتني إليه هي إنجازاته فيما يتعلق بالتطور (الدارويني خاصة) ومستقبل تطور الإنسان المعرف والبيولوجي، وأيضا إسهاماته في فحص مسألة علاقة الوعي بالعقل، وكل ذلك هو ما لا أتصور أن طبيبا نفسيا يمكن أن يمارس مهنته بما ينبغي كما ينبغي، دون أن يلم بها .

- من أهم أعمال الكاتب الأحدث في هذين المجالين ما يلي :

العمل الأول "معاودة المواجهة لمشكلة الوعي"

هل استطعنا أن ننجح في شرح ماهية "الوعي" أم

ليس بعد؟

"Facing Backward on the problem of consciousness"

Are we explaining consciousness yet?

Cognition 79 (2001) 221-237

- حتى نعود إليها في كتاب الأساس الكتاب الثاني:
السيكوباتولوجية الوصفية.